

المبحث الأول

تقديس العقل

إنمّا هم سمات الحداثة، تقديس العقل، وجعلهم جعية في الحكم على الأمور وتفسيرها. ول هذا نجد الحد اثيين عونا لى عرضاً حكاماً للإسلام على العقل، فما كانوا أفعالاً هيّ قبل ما كانوا مخالفاً ل لا يقبل، فال بشرية ((المتعد في حاجة إلى قيادتها في الأرض بآسما السماء، فقد بلغت سن الرشد، وأنلها أن تباشر شؤونها بنفسها)) (١).

-

فبينما الحداثة، وتقديس العقل علاقة تلازم، فإن ((قوام الحداثة بالعقلانية، أي الحد اثو يميز بعلميز انال رفضو القبول، الإنكار والتأييد، الجرحو التعديل، التضعيفو التقوية في باطنه، أيير جعل مدر كاته لقبولاً ورفضاً يقضيه أو معتقد. العقلانية بمعنى أنميز انكلشخصجو انحها لجوارحه، طبعاً هذا يسبمعنى عدم التعلم من الآخرين... ولكن المميز ان يجبا أن يكون نبدياً أنا الإنسان. أنا أتعلم منكم، وأحضر دروسكم، أطلعكم بكم، وأستشيركم. وفي نفس الوقت أجعل المختبر والطبيعة، وفي خاتمة المطاف، كياقرباً أمر أو أرفضهاً رجاءى قوايا لإدراكية، وهذا هو معنى العقلانية. إذ نجميع هذه العناصر تدخل في تأليف هذا المعيار، ولكن في خاتمة المطاف يجبا أن تقاس جميع القضايا بواحدة أسطة الفر دنفسه.

أعتقد بأن الحداثة وجد تحينما وجد تعقلانية بهذا المعنى، أقصد الفكر الذاتى المستقل، أو الحكم المسد نقل)) (٢). فهم يقولون بنبطح كيم العقل على النقل، وينتقدون العقل المتقيد بالدين، (فالعقل الديني) - كما يقول لمحمد أركون - بطبيعته:

(١) العصرانيون، ص ٢٠٤.

(٢) مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة الرابعة عشر، ع ٤٣ - ٤٤ / صيفو خريف ٢٠١٠م -

١٤٣١هـ، مصطفى مليكان، ص ٤٣، ٤٤، ٤٥.

((عقلنا بعلامتنا مستقلة، وبالتالى فهو لا يطرأ مشكلة أصلاً لحي المعطى، أو معطى الوحي: أياً لوحي كظاهرة موضوعية موجودة بغض النظر عن مشاعرنا الذاتية، تماماً كوجود الظواهر الفيزيائية أو البيولوجية...، ومن هنا جاء تقديرنا الشريعة القانونية للإسلاميو اعتبارهم فوق البشر والتاريخ))^(١).

وإصرار الحداثيين على مسألة العقل الميأتمفراغ، فالحادثة كما عرفنا سابقاً غربية المنشأ، وهى فى الغالب بقدمتها على أصول (الفكر العقلاني)^(٢)، الذى ظهر فيما يسمى (عصر التنوير)، الذى نتجنا المعركة التى حصلت فى أوربا بين رجال الكنيسة والعلماء، وهى التى حسمت دور رجالات العلماء، فحدثت رد فعل قوي على طغيان الكنيسة، فأقصيت تماماً وحل محلها العقل، وصار له، وحده، الحكم على الدين، وعلى سلوك الناس وعلى كل شيء، بداية من النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى الذى عرف فيما بعد بعصر التنوير، فأصبحت العقلانية مذهباً فلسفياً. إلا أنها مع ذلك لم تكن فكر جديداً، فقد كان أساس هذا الفكر هو الفلسفة الإغريقية القديمة على يد (أرسطو)^(٣)، وغيرهم من الفلاسفة^(٤).

وقد عاش العقل فى المفهوم الأوربى أدواراً متناقضة، بين مدمر وجزر، وتقديمو تأخير.

ويمكن إيجاز تلك الأدوار - بصور عامة - فيما يلى:

(١) الإسلام والحداثة، عبد المجيد الشرفى، ص ٣٣٨.

(٢) الفكر العقلاني:

هو مذهب يقو معادى الإيمان المطلق بالعقل وقدرته، وأنه يصل إلى تحصيل الحقائق من العالم المبدون بمقدّمات تجريبية، ولا تستمد المعرفة فيها من الخبر الحسية، وأهم فلاسفة هذا المذهب:

ديكارت، وسيبوزا، ولايبنتس، وكاندالمبير، وفولتير، وغيرهم.

ينظر: الموسوعة الفلسفية، عبد المنعم حنفى، ص ٤٣١.

(٣) أرسطو طاليس: هو فيلسوف يونانى ولد سنة (٣٨٤ ق.م)، أمضى حوالى عشر ينعاماً متلمذاً على أفلاطون، يعتبر منكبار الفلسفة الدينامية وتأثيرها على عصور ومجتمعات كثيرة.

ينظر: معجم الفلاسفة، ص ٤٧.

(٤) ينظر: المذاهب الفكرية المعاصرة قودور هافيا المجتمعات موقفاً للمسلم منها، ص ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١.

الدور الأول:

وتمثلت في تقديس العقل وتقديمه فوق كل اعتبار فأصبح هو الفيصل في جميع الأشياء، وهذا في اللفظ سفة الإغريقية كما ذكر تقبل قليل.

الدور الثاني:

وتمثلت باحتقار العقل إقصاءه، وهو الدور الذي قام به رجال الكنيسة حيث رفعوا شعار (إنهم عقلك)، وأصبحوا هم مصدر التحليل والتحرير، وأوردوا أفكاراً لا يقرها العقل لا حتى ديناً نصرانية الحق، وألزموا الناس بالتصديق بهذا لأمر التسليم بها، وفرضوا ذلك بالقوة، القوة التي يأتيحتلهم مبتحالفهم مع رجال السلطة.

الدور الثالث:

إعادة تقديس العقل من جديد، وهو دور جاء كردة فعل قوية على تصرفات رجال الكنيسة، وقد برز هذا الدور مع ظهور غلبة الفكرين العقلانيين في القرن الثامن عشر، حيث رجعو إلى تقديس العقل. فكان موجوداً قبل النصرانية في عهد الإغريق. وسميت فترة العودة لفكر العقلاني (عصر التنوير)، فعادوا كل ما يمت إلى الدين بصله، ضائناً بالخرافات التي كان يفرضها رجال الكنيسة تمثال الدين.

الدور الرابع:

التقليل من تقديس العقل، وذلك بإشراكهم بالتجربة والحس في إثبات الحقائق والحكم عليها.

الدور الخامس:

عدما اعتبار العقل أو الدين مصدر أمن مصادر المعرفة، بل العبر بالتجربة فقط^(١).

فقامت الصناعات الأوروبية وتتطور الأوربي على الفكرة التي تصور هار جالالتنوير ورجا
للمادية في إقصاء الدين، لأنها لا يتفق مع العلم المكتشفات، وها فتراءات تصدق على الدين الكذ
سيالذي كان يقرر أندخو لاجمافيسم الخياط أقر بمن دخو لا لغنيم لكو تال له بسبب ما عند همنال مال، أماد
ينا للإسلام فهو يقول:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٢)، وتصدق على الدين ال
ذا اختر عهر جال الكنيسة، الذي يعادي العلم والعقل، لا على الإسلام الذي يدعو للعلم والعقل، بل يعتبر
طلبا للعلم من أوجبات.

ولكننا عند البحث في مسألة العقل نجد أنها كفرة قد سبقنا لحدثين في التأثير بالفكر الإغريقي.

عقليوهم

(المعتزلة)^(٣)، فهم أيضاً قد حكموا العقل تحكيماً مطلقاً، وردوا النقل الذي خالفه، ونجد أن أحد اثنينك
ثير أما يشيدون بهم، فالمعتزلة عندهم، هم (المفكرون الأحرار في الإسلام)، فهم يجدونهم، وقد أء
جبو ابمنطقهم وفلسفتهم^(٤). فقد اعتمد المعتزلة على تقديم العقل على النصوص الشرعية، ومن أجل
ذلك احتاجوا إلى تأويل الآيات الأحاديث لتتناسب مع قولهم. والمعتزلة افترقت إلى أكثر من عشرين فرقة
لفرقة منها تكفر سائر ها، غير أن القاسم المشترك كالذي لا بد منه في من يسمى معتزلياً يتمثل في القول بالآ

(١) ينظر: المذاهب الفكرية المعاصرة قودورها في المجتمعات موقفاً للمسلم منها، ص ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

المعتزلة:

(٣)

فرقة كلامية إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي أو أرتفع شأنها في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل في فهم العقيدة الإسلامية، وقد تأثرت
ببعض الفلسفات الغربية، وقد أطلق عليها تسميات عديدة منها: المعتزلة، القدرية، العدلية، أهلال العدل، التوحيد وغير ها.

ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب الأخرا المعاصرة، ص ٣٥.

(٤) ينظر: العصرانيون، ص ٢٩٤، ٣٦٨.

صول الخمسة، وهي:

التوحيد، والعدل، والوعدو الوعيد، والمنزلة بينا المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فرتبوا على أصل التوحيد القول بنفي قدم الصفات عن الله تعالى، كالسمو والبصر وغيرها. وكذلك كفوا إمكانية رؤية الله تعالى في الآخر قوز عمو أن كلام الله تعالى مخلوق، وحدثت الفتنة الشهيرة بفتنة خلق القرآن. وبنوا على أصل العدل القول بأن العبد هو الذي خلق أفعاله نفسه، وقولهم بأن الله تعالى لا يأمر إلا بما أراد، ولا ينهى إلا عما كره، وقولهم إن الله حكيم لا يفعل إلا ما فيه صلاح وخير، فذلكم نهوا جب.

وبنوا على أصل الوعدو الوعيد، القول بأن الله تعالى لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة، ونفوا إمكانية غفرانها ابتداءً.

أما المنزلة بينا المنزلتين فهو الأصل الذي عمو أفيها أن الفاسق من أمة محمد ﷺ لا مؤمن ولا كافر، وإنما هو بمنزلة بينا المنزلتين.

أما أصلها الخامس هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أوجبوا فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المسلمين. وفي الحقيقة فهذا الأصل سلوك أكثر منها اعتقادي، ومظهر الشذوذ أو اختلاف المعتزلة فيه عن سائر جمهور المسلمين، هو أنهم جعلوا من هذا الأصل أدلة لترويج أصولهما لأربعة السابقة^(١).

وبشكل عام فقد تغلبت عند المعتزلة النزعة العقلية، فكانت نصيباً اعتمادهم على صحيح المنقول من جراء ذلك ضئيلاً جداً.

فهميرو أن مقياس الحق هو لا العقول، فالذي قبله العقل فهو الحق الذي لا جد فيه، والذي يبرفضها العقل هو لباطل الذي يجبر فضه.

(١) ينظر: المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، محمد سعيد رمضان البوطي، منصف ٧٠-٩٠.

و السبب الأساسي الذي دفع المعتزلة لاتخاذ هذا الموقف من العقل، هو اختلاطهم وتأثرهم بأهل الديانات الأخرى وبالفلسفة التي حملوها معهم، ومناهم تلك الفلسفات التي أثرت فيهم هي الفلسفة الإغريقية. فقد أقبل المعتزلة في بداية الأمر إلى أصحاب تلك الفلسفات لجادلوهم أملاً في هدايتهم، ولكنهم لما أروا أنيستخدموا أنفسهم سلاحاً للفلسفة قاموا بدراسة الفلسفة الوافدة، وبدون أن يميزوا بين الغث والسمين فبنتلك الفلسفة، وأوغلوا في ذلك وبدون رفق، وكان في مقدمتهم (أبو الهذيل العلاف)^(١) من رجال الطبقة الثنية في الاعتزال، فقد اشتغل بقراءة الفلسفة اليونانية وتأثر بها أيماناً، وكان من أبرز علماء المعتزلة قوماً نظريهم^(٢).

وهكذا انتهى بهما الأمر بالقول بأشياء مما أنزل الله بها من سلطان، وطعنوا في بعض الصحابة، ولم يقبلوا وأخبر الأحاد في العقيدة وإن كان صحيحاً، وقالوا بأمور غير ذلك كثير فخالفوا فيها أهل السنة والجماعة^(٣).

أما عند الحدائين فالمعتزلة هم الرواد الأوائل للفكر المتحرر، وهما المطبقون للحقوقيون لما أراده الله من سوله، فيقول بعضهم: (حاو لالنبي (ص)) مع ظهور الإسلام أنيؤسس للتعديدية الثقافية حينما فرقت بين ثقافة الثبات والمخصوصة في المجال التالعبادية... والثقافة المتغيرة التي تتعاطى معالواقع وتطور هعندما قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، وقد حاو للإمام علي (ع) تكريس هذا الفهم القائم على قبول الآخر وتعديدية الفهم بقوله:

(القرآن حملاً لأوجه)، وللسير بالثقافة العربية بهذا الاتجاه الرحب... ظهر علم جديد هو (علم الكلام).. الذي كان أبطله بحق من خريجه مرساة الاعتزال: التي فتحت أبواب الاجتهاد على مصر

(١) هو محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكي، مولد في سنة ١٣٥ هـ، ولد سنة

في البصرى وكان حسن الجدل قوي الحجج سريع الخاطر، عمره وكف بصره في آخر عمره، وتوفي بسامراء سنة (٢٣٥ هـ) وقيل سنة (٢٢٧ هـ)

ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ١٣١/٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٠/٥٤٢.

(٢) ينظر: المذاهب المتوحيديّة والفلسفات المعاصرة، ص ٩٢.

(٣) للاستزادة ينظر: العصرانيون، منص ١٣-٢٩.

اعياها (حتى انتهت مدرسة المعتزلة إلى ترويج حكم العقل ذاتاً وعارضاً واختلاف مع النص)...
وسادت بحرية البحث حرية الاعتقاد..

حتى أنهؤلاء الأفذاذ ناقشوا ليس فقط المنظومة الحقوقية للمجتمعات وتطورها، وهو الجانب المتغير
بحسب الزمان والمكان... بل تجاوزوا ذلك إلى موضوعات الإيمان الغيبية مثل: الذات الإلهية وصفاتها
، خلقها وأحداثه... الخ، إلا أن الذين أتوا بعد ذلك حاولوا تلك التعددية إلى رؤى تتأصل ضمن فكرة
سياسية ذات رؤية منهجية واحدة صحيحة بالمطلق، تقوم على قاعدة
(العقل المتمحور حول المقدس)...

لنتتبع جميع تلك الرؤى التي تحولت إلى مذاهب، عند حقيقة مرجعية ثابتة هي (النص)، الذي انقضى
لدى منهو ظروفيها التي أفرزت تهمة السنين في جغرافيا محددة^(١)، ومحمد عابد الجابر يعتبر أن
(التخالف الذي نعاني منه فكراً هو التخلف المرتبط باللاعقلانية، بالنظر السحرية إلى العالم والأشياء
، بالنظر اللاسببية، لذلك فإن تحقيق تنمية في الفكر العربي المعاصر فيتطلب فلسفة، أياً تطلب طرْحاً
لأنها لا تقضي الفكر)^(٢). وبسعيهما إلى (عقلنة التفكير) - إنصاح التعبير -
لا يجدون في التراث الإسلامي مفرقة أشهر من المعتزلة لكي يعدوا نهار من تلك الدعوة
(العقلانية)، فالمعتزلة عندهم: ((أكثر الإسلاميين عيالاً أفعالهم حلة، يتقدمون بالوحي والعقل
حاولوا توفيقاً تجديدية في الإسلام، تسمح لهم بمجمع تناقضية الحقبة: معرفة المعارض، ودينية
لشرعية!! الكلمات التي كانت من قبل الله، الحاكم، أو الفقيه، أصبحت تعطى للعقل))^(٣).

ونجد أن (أدونيس) قد قسم الجزء الثاني من كتابه (الثابت والمتحول)
إلى ثلاثة أقسام، وجعل القسم الثاني تحت عنوان:
(تأصيل الإبداع والتحول)، ثم يذكر تحت هذا القسم فصلاً، يحملان اسم: (المنهج التجريبي

(١) الفكر العربي وتحديات الحداثة، صمد كاظم سمي، ص ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٢) التراث والحداثة، ص ٢٤٣.

(٣) جدالات التنوير، د. هيثم مناع، ص ٧.

يو إبطا للنبوّة) ، ويذكر في هذا الفصل الكثير من الملاحد قو منكري النبوّة ، كابن المقفع^(١) مثلاً ، ويعتبر همن مؤ صلياً لإبداء التحول ، لاشيء إلا لأنهي حكماً العقل ، ويجعلها امر جعياً الحك معلى الأمور وفي تفسير الأشياء ، فيقول عنه :

((كان ابن المقفع من أوائل الذين قفوا من الدين موقفاً عقلياً ، فانتقد الدين بعمامة وخصاً لإسلام ، فانتقد القر أنوما فيهم عقائد وتصور هله ، و الرسول))^(٢) ، و لنفس السبب يذكر أدونيس في سياقاً لإبداء التحو ل ، (أبو بكر الرازي)^(٣) ، فيقول عنه :

((يقو منقد الرازي للنبوّة على أساسين ، عقليو تأريخي ، ومقدمة الأساس الأو لأن العقل مصدر المعر فة ، ولذلك يجب أن يكون متبوعاً لاتباعاً))^(٤) ، ثم ينقل عنه بعد ذلك الكثير من النصوص صفيانكار و انتقاد النب و قو الأديانو الكتاب المقدسة ، ثم يعقب على ذلك بقوله :

((و هكذا يرى الرازي أن العقل هو وحدهم مصدر المعرفه وأصلها ، وأن النبو قباطلة ، و هو لذلك يرى أن العقل هو الذي يهدى الإنسان ، وأن النبو هيا التي تضله))^(٥) ، ثم ما يلبث أن ينتقد ما يسميه (الاتباعية) أو (النقلية) ، وينتقد اعتمادها على السماع ، ويمتدح الاعتزالبأنه قد عكس هذا الموقف ففقد دما العقل على الشرع ، وأعتبر أن المعار فكلها معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعمو اجبة بلور ود السمع ، و الحسنو القبح صفاتنا ذاتيتان للحسنو القبيح^(٦) .

فبداية التأثير بالمدرسة العقلية الأوروبية كانت على يد المعتزلة كما قلنا سابقاً ، وكثير من الباحث ثيني يعتقد أنه قد ظهر تقي العالم الإسلامي بعد ذلك مدرسة عقلية أخرى متأثرة بالمدرسة العقلية الأوروبية

(١) هو عبد الله بن المقفع أحد البلغاء و الفصحاء ، و أول من غيبت ترجمة كتاب المنطق ، أصلهم من فارس ، كان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاحو ولي كتابة الديوان للمصور العباسي وترجم له كتباً سطو و إيساغوجيو كليله و دمنة ، اتهم بالزندقة فقتلهو الي بالبصر سنة (١٤٢ هـ) . ينظر

: سير أعلام النبلاء ، ٢٠٨/٦ ، و البداية و النهاية ، ابن كثير ٩٦/١٠ ، و الأعلام ، ١٤٠/٤

(٢) الثابتو المتحول ، ٧٣/٢

(٣) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، ولد سنة (٢٥١ هـ) و توفي سنة (٣١١ هـ) ، كان طبيباً و فيلسوفاً .

ينظر : الأعلام ، ١٣٠/٦ . و هو ليس فخر الدين الرازي بالمفسر .

(٤) الثابتو المتحول ، ٨٠/٢ .

(٥) المصدر السابق ، ٨٥/٢ .

(٦) ينظر : الثابتو المتحول ، ٨٥/٢ .

ببينة الحديث، سبق ظهورها ظهور الحداثة في العالم العربي الإسلامي، وقد عدت منارها صاغات الحداث كما ذكرنا سابقاً.

ويعتبرونأنهذهالمدرسةقدتأسستعلىيد(جمالالدينالأفغاني)^(١)،و(محمدعبد(٢)تلميذه^(٣)).وقدأختلففيهاثينالشخصيتيناختلافاًكبيراًجداً،ولاسيما(جمالالدينالأفغاني)،فبينمايقولبعضهم((أنمؤسسهمذالمدرسة-جمالالدينالأفغاني-

هو باعثة نهضة الشرق، وزعيم آمنز عماء الحركات الإسلامية في آخر القرن التاسع عشر، ومقاو مآل الاستعمار الغربي، ومفجر الروح والعزق الحرية في الشرق الإسلامي، ومحار بأشديد الاستعمار البريطاني في مصر والهند. يرى آخرونأنالأمر يختلف عن هذا الرأي، وأنواقعالر جلكانغريباًمر (يباً))^(٤)،وحيثذكر بعضالباحثين:

((أنهذهالمدرسةالإصلاحيةالتيبرزعماالشيخمحمدعبدهدأتوجهتهاالإصلاحيةأوالتجديدي قمنالوجهةالخطأ،أيوجهةالمواقفاتعايشمعالاستعلاءالاستعماريفيدينارالمسلمين،فكانذل كالمزلقالذيأهدرتبهمجهوداتالإصلاح،بلأنحرفتبسببهاإلىباطلمنالقولوالعمل،انتهىإلىإج

(١) هو محمد بن صفر الحسيني، فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرجال الذين أخذوا على عاتقهم نهضة الشرق، ولد في أسعدآب ادفيافغانستان سنة (١٨٣٨م)، تتلمذ لكثير ومن أبرزهم:

الشيخ محمد عبده، وهو كثير الأسفار، فقد سافر إلى بلاد كثيرة، وفي منبعضها، وأنشأ مع تلميذه محمد عبد هجرية (العروة الوثقى)، وآخر ما أستقر به الحال في (الأستانة) وتوفي بها سنة (١٨٩٧م). ينظر: الأعلام، ١٦٩/٦.

(٢)

هو محمد عبد هب بن سخير اللهمناً لآلتركماني، مفتي الديار المصرية وهو من كبار رجال الإصلاح والتجديد، ولد في مصر سنة (١٨٤٩م)، تعلم في جامع أحمد بطنطا، ثم في الأزهر، تصوف وتلفس وتعلم اللغة الفرنسية بعد الأربعين، وشارك في محاربة الاستعمار الاتكليزي، وتولى القضاء ثم أصبح مفتي الديار المصرية، وأستمر على ذلك إلى أن توفي سنة (١٩٠٥م)، قال أحد من كتبوا عنه:

((تتلخص سالة حياته في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بينما للحكومة منحق الطاعة على ال شعوباً للشعب منحق العدالة على الحكومة)). ينظر: الأعلام، ٢٥٢/٦.

(٣) ينظر: التجديد في الفكر الإسلامي، د. عدنان محمد إمامة، منصف ٣٦٤-٣٦٩، والعصرانيون، منصف ٣٣-٤١.

(٤) العصرانيون، ص ٣٣.

هاضحة النهضة الحديثة، وجعلها خرقاً، تؤتى من قبلها لأمة تفيد دينها وقيمها وحضارتها^(١)؛ يذكر باحثون آخرون أننا لخطأ أن يوضع (جمال الدين الأفغاني) و (محمد عبده) مع بعض أصحاب التنوير الغربيين، وأننا بهذا الوضع نكون إذاء مستوى جريء من مستوى ياتلننر، معلاً ذلك بأن وضعهم في سلة واحدة يعتبر خلطاً بين (التجديد الإسلامي)، الذي يعتبر هت طوير وتجديد من داخل النسق الإسلامي، ملتزم بمبثو ابتها مبادئه ومقاصده، وبين (التنوير - الغربي - العلماني)

الذي يقيم طبيعة معالدين، ويعزل له عنشئنا الدولة والاجتماعا لإنسانيو العمرانا البشري، مكتفياً بأعمال الشهادتو العقلو التجريب^(٢).

وبغضالنظر عن هذا الخلاف فإن التأثير بالعالم الغربي بقدر حصل في العالم الإسلامي، لاسيما في بداية القرن العشرين، فالحدثيون نصرون: بأن ((التوجهات الأساسية لمفكرين العشرينات، تقدم مخطوطاً عريضة تسمح بالقول: إن البادية الحقيقية للحدثية من حيث هي حركة فكرية شاملة قد انطلقت من ذلك، فقدمت الفكر الرواد الأول أو ثلث طبيعة معالم رجعية الدينيتو التراثية كمعيار ومصدر وحيد للحقيقة، وأقامر جعين بدليلين، العقلو الواقع التاريخي، وكلاهما إنساني، ومن ثم تنطويري))^(٣). وقد حصل ذلك التأثير، وبهذا الشكل الكبير، لأن العالم الغربي أصبح هو الجهة الأقوى، والعالم الإسلامي لاميها الجهة الأضعف هو المغلوب، فكانت تأثير الغالب عليه كبيراً، فتأثر بمنهجها العقلي كما هو حال صافيا الفكر الحديث.

والحقيقة أن للعقل مكانتها التي لا يمكن إنكارها، وبه يكون التمايز بيننا وبين الإنسانو الحيوان. وقد أكد دالقر أن الفكر يمد على العقلو التفكير والتدبر واستخداما العقل في ذلك كفاياً تكثيراً^(٤). كما ((أهتما الإسلام بالعقلاهتما مابالغاف جعلهم ناط التكاليف، فإذا قُدر أن تفعالتكاليف، ويعد فاقدها كالبه

(١) جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، جمال سلطان، ص ٦٦.

(٢) ينظر: الإسلاميين التنوير والتزوير، ص ٢٣٨، ٢٥٣.

(٣) الحدثية في ميزان الإسلام، ص ١٨، ١٩.

(٤) ينظر: فلسفة التنوير، ص ٣٦، ٣٧، ٣٨.

يمة لا تكليف عليه، بل جعلها لإسلام إحدى الضروريات الخمس التي أمر الشارع بحفظها ورعايتها، لأذ مصالح الدين والدنيا مبنية على المحافظة عليها. وليس ثمة عقيدة تقو على احترام العقل الإنساني، وتعتز بهو تعتمد عليها فيترسيخها كالعقيدة الإسلامية^(١).

وقد كرر ما للهِ الإنسان تكريماً لا مثيل له، وذلك بمنحه العقل، فهو منحة إلهية عظيمة. وتوجد في الإسلام مظاهر كثيرة قلّ تكريم العقل عند الإنسان، منها:

١ - أن التفسير الديني الصحيح للإنسان، والكون، والحياة، وما وراء الحياة، هو في حد ذاته تكريم لمعقل الإنسان بإبعاد همل أو هامو الخرافات.

٢ - دعوة العقل للتفكير والبحث التأمل في الكون، وسبر دقائقه وكشف أسرار هو الاستفاد منه، ويتمثل

لذلك في آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ^(٣)

٣ - الدعوة إلى العلم، فهو ينتجنا البحث والنظر والتفكير، وقد دعا الإسلام إلى العلم، فالآيات كثيرة في فضل العلم والعلماء، معالحن على العلم جميعاً نواعه.

٤ - ربط التكليف بالعقل، وجعل الابلو غلامته وإمارة عليه، وأباح لإسلام كل ما ينمي العقل ويشدّه ويصقله، وحرّم كل ما يؤذي العقل أو ينقصها أو يعطلها عن العمل، كالسكر أو المخدرات.

٥ - الربط بين الإيمان والعقل، لأن وظيفة العقل الأساسية - إذا عمل ونشط -

هي هداية الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى عن طريق التفكير في آيات القرآن الكريم المكتوبة، وآيات الله كونا المرئية^(٣) ولا يمكن أن يفهم أبداً من كون الإسلام منهجاً قد وضعها لله سبحانه وتعالى للناس

(١) العصرانيون، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) سورة العمران الآية ١٩٠، ١٩١.

(٣) ينظر: حقوق الإنسان في الإسلام، أ.د. محمد وهبة الزحيلي، من ص ٤٧ - ٥٦.

نهيلغي دور الإنسان أمام هذا المنهج، وأنا إسلامي اعتبر الإنسان مجرد متلقي يجب عليها التسليم والتذلل فيذفحسب. فإن الإسلام قد أعطى للعقل أدواراً مهمة جداً، فقد تتركز كلهمجالات التعديد ففسحة منها:

١- ترك كل العقلا فمجال العقيدة أنه تهديا إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود: الحقيقة الأولى: وجود الله وحادانيته، فوجوده تعالى كما تهديا إليها الفطرة السليمة يقتضيها كذلك النظر الصحيح، والعقل لا الصريح.

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي النبوي فالرسالة، فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعها بالفعل.

فها تانا الحقيقتين أن لا يمكن الاستدلال عليهما بالنقل ونصوص الوحي، إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد؟! ولهذا قال العلماء: العقل أساس النقل.

-٢-

وترك كل العقلا فمجال التشريع أن يجول في صول في فهم النصوص، وقالوا بباطل العامة ومقاصد الشريعة، فيفرع على الأصول، وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام، ويرى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد، وفعال حرَج، وتقدير الضروريات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروفها والزمان والمكان.

-٣-

وترك كل العقلا فميدان الأخلاق أن يصدر حكمه وفق ما هو متعارف عليه من المسائل التي لا تنسب فيها الخير بالشروط يشتهر بها الحل بالحرَام.

-٤-

ثم ترك كل العقلا بعد ذلك أن يجول بهذا الكون الفسيح ما شاء، وينظر في آيات الله، ويبتكر، ويختار عفيشؤون الحياة بما ينفع الناس ويعمر الأرض ما شاء، مادام متمسكاً بحدود الحقوق العدل^(١).

ولكن، ورغم كل ما مر ذكره من إثبات مكانة العقل في الإسلام، فإنهم لا يمكن إنكاره ((أن المسلمين في القرون الأخيرة قد خذلوا الإسلام مهميواً بأن عطلوا العقل عن وظائفها الكونية التي دعاها

(١) ينظر في النفاط الأربع المذكورة: الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، منصف ٦١-٦٦.

القرآن إلى مباشرتها))^(١)، فنجد مثلاً أننا لاجتهاد الذيهو مظهر من مظاهر إعمال العقل، ((قد نشد طيعهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين...، ثم البتة أن تبلور تصيغ مدرسية فقهيّة كان من شأنها المذاهب الأربعة المشهورة... وبالتقليد أحد هذه المذاهب أمر أمحتماً... ولم يعد النظر في الأدليل الشرعي الاستنباط منه هو المسلك السائد بين العلماء، بل اكتفى العلماء بالتبحر في معرفة ما ذهب إليه المجتهدون والسابقون، ووجدنا الكثير من العلماء يعتمدون إلى تلخيص الفقهاء المذهبي، وسميت هذه التلخيصات بالمتون، وما لبثت هذه المتون أن احتاجت إلى شروحات. أما الاجتهاد فقد أصدحتهمة، ووصل الأمر بالعلماء إلى أن يفتوا إياها غلباً بالاجتهاد))^(٢).

إلا أننا لن نضاف أن يفرض قبيح أفعال المسلمين حقيقة الإسلام، لأن الحكم على الإسلام ممنوع أفعال المسلم من يفرضه ظلم للإسلام من جانب، وفيهم جافة للمنهج العلمي من جانب آخر^(٣). ونحن هنا نقسم مسألة العقل من منطق حقيقة الإسلام ممنوع أفعال المسلمين، فحقيقة الإسلام أنها أعطى للعقل مكانته دورها الذي ذكرته آنفاً، ولكننا العجيب في هذا الأمر أننا نحدثين زعم المكانة العالية التي وضعها الإسلام لمبها العقل، والتأكيد لا ينكرها حتى غير المسلمين، لا يُسلمون بهذا الأمر، بل يستمر ونفي انتقاد ما يسمون (التمحور حول المقدس)، ويقصدون بها النص، وآراء الفقهاء^(٤).

ويستمر ونفي الدعوة إلى تقديس العقل جعلها المراجع جميعاً لأشياء، فالدكتور (حسن الحنفي)^(٥) يقول في هذا الصدد:

((السلطان على العقل لا سلطة إلا للضرورة الواقعة الذي يعيش فيه))^(٦)، ويقول أيضاً:

(١) فلسفة التنوير، ص ٣٥.

(٢) دراسات في الفكر الإسلامي، ص ١٦٧.

(٣) ينظر: فلسفة التنوير، ص ٤٠.

(٤) ينظر: الفكر العربي وتحديات الحداثة، ص ٧٧.

(٥) حسن الحنفي: ولد في القاهرة عام ١٩٣٥م، حصل على الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا عام ١٩٦٦م، ويعمل أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة، ورئيساً لـ

مات فلسفة فيها، والسكرتير العام للجمعية الفلسفية المصرية. ينظر: الإسلام والحداثة، ص ٤١٦.

(٦) التجديد في الفكر الإسلامي، ص ٣٩٢.

((النصوص الشرعية ليست حجة والعقل أقوى في الاحتجاج منها))^(١)، ويقول حدث آخر :
 ((إن هذا العقل هو عدتنا الوحيدة للحكم على الأشياء))^(٢)، وحدثا يونسببتحكيماهما المطلقة للعقل
 ، نجد هـميشككونفي كثير من الغيبيات التيات تصدقها عقولهم ، فنجد (حسن حنفي)
 مثالايدعي أن كثير من الغيبيات هي أشبه بالأساطير ، وأن كثير من أمنها لا يقصد بها معناها الحقيقي وإنما
 هيرموز ، ثم نجد هـيصر حـ بناء على ذلك - بقوله :
 ((يمكن للمسلم المعاصر أن ينكر كلاً من الغيبيات الدينية وكونه مسلماً حقاً فيسلوكة))^(٣).
 وفي الحقيقة فإن العقل محدوداً ينبغي أن لا يتجاوزها ، رغم ما مر علينا سابقاً من أهميته ، فمثلاً الأمر الشر
 عية الصريحة ينبغي ألا تلزمها وإن لم تعلم الحكمة منها ، كالصلاة مثلاً ، فإن الذي يحكم عقله فيمثل
 هذا الأمر ويمتنع عنها يكون قد سار على النهج الذي أدى لحدوثها ولمعصية لله تعالى ، والتحدث
 تعالى يد إيليس ، حينما رأى تفضيلاً للنار على الطين ، فاعتراض على الأمر الإلهي المباشر بالسج
 ود لآدم ، وكذلك الحال مع الأمور الغيبية ، فمحاولة إدراكها بواسطة العقل محدود الطاقة ، دون سند
 من النصوص ، هي محاولة فاشلة أو لا ، وعابثة أخيراً .
 فسلتلاستخدامها أدلة متخلفة هذا الغرض ، وعابثة لأنها تبذل طاقة هذا العقول في أمر لم يخلقه
 هـ . فعليه أن يتلقى الغيبيات بمنعها ما الغيوب ، اللهم سبحانه هو تعالى .^(٤)

و عند التدقيق في هذا المسألة - إدراك الغيبيات -
 نجد أن العقول إما كانت أن يصل إلى اليقين بها ، فالمنهج العلمي للوصول إلى اليقين بها هو أحدثيين :
 إما الاعتماد على الخبر الصادق ، وإما الاعتماد على البرهان العقلي المتمثل في قانون التلازم .
 وما يقيننا بكثير من حضارات الأمم البائدة والكثير من خصائصها الثقافية والاجتماعية الإنتاج أحد
 يهذين الطريقين^(١) .

(١) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(٣) العصرانيون ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٤) ينظر : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

وقد يقال: إنهذا اليقين إنما حصل بسبب الخبر الصادق (النص)، لأنه قد جزم به العقل.

فأقول:

إن العقل لا يستطيع الحكم على الأشياء باعتبار هجوهر أم مستقلاً، فالعقل يستقيم علوماً متهمنا لحواسا لخمسة لتي هي محدودة، وقديطر أعليها خلل، فالذي يشاهد السر ابقديظنهما ءاً، و المحمو ميجد الماء الال لالمر أو هكذا، وكذلك يحكم العقل على الأشياء انطلاقمنا مور مسلمة لديه، استقاها إمامنا لخبير الال صادق، أو بالتجربة، أو البيئة المحيطة به. فالذي يعيش في الدوال لالغربية مثلاً يحكم على أشياء بأحكا مانطلاقمنا واقعها، قد تختلف عما يحكم بها شخص آخر يعيش في بيئة أخرى. أما الادعاء بوجود

(العقل المجرد) فهو ادعاء يكذبها الواقع، ((فالعقل - في مصطلح لالعر بية ومفهوما للإسلام - ليس (عضواً)، وإنما هو

(فعلا لتعقل)... وبهو بالقلبو النهى واللب، وبالنظر والتدبر والتفكر والفقه، كانا لتعبير القرآني عذ سبيل هذا المنهج من ناها لالنظر و عن مضمونا هذا المصطلح))^(١).

ويؤكد الكثر من علماء المسلمينا على أن العقلو الشرع لا يتعارضان لتعار ضا حقيقياً مانا لنادية النظرية، لأنك ليهما نور منعند الله فلا ينقض أحدهما الآخر، و لانا للاحية العملية، فلم يثبت أن اصاد طدم حقيقة دينية بحقيقة عقلية^(٢).

ولكن لكونا لالعقل محدود و دوسائلها لتي يستقيمها معلوماها، أدى ذلك إلى اعتراضا لبعض على لأمورا الغيبية في الدينو نحاها مانا لأمورا التيا لتقبلها عقولهم. ولكنياً اعتقدا بأنهم محجوبون بحدج كثر قمنها:

١ - أنا لالعقل البشري يفكر استناداً إلى بعضا المقاييسو المعلوماا السابقة، أما أصحاب

(العقل المجرد) فهم

((لايزالون يؤمنون بأنا لالعقلو هبة طبيعية تنمو من تلقا ذاتها سواءأعاشا لإنسان في المجتمع، أم

(١) ينظر: هذه مشكلاتهم، محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٢) أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٢.

(٣) ينظر: الأماما لالغز اليو جهود ه في حركة الإصلاحو التجديد، د. عليا صلاحي، ص ٣٩.

عاشمنذو لادتهو حيداً أمنعزلاً. أما الأبحاث العلمية الحديثة فهى تكاد تجمع على خطأ هذا الرأى حيث تثبت اليوم أن العقل لبشر يصنعه من صنائع المجتمع هو لا ينمو أو ينضج إلا فى حمة الاتصاف لا الاجتماعى... ظناً قدما عبأنا التعصب أمر طارئ على العقل لبشر حيث اعتقدوا بأن العقل ميبالب طبيعتها إلى الحياد فى النظر والنزاهة فى الحكم، فإذا رأو الإنسان يتعصب لرأى يغضبوا عليه ولعدو ه، ومادروا بأنهم مثله متعصبون، إنهم فى هذا كمثل ذلك الغرأ بالذى يعيب غرأ بآخر بسوا دوجهه، وهو مثلها أسود الوجه))^(١).

٢- إن الذبيد عو إلى إنكار الغيبىات، ولا يصدق بما هو أبعد مما تدر كها التجربة الحسية والعقل المددود القدرات، هو شخصينا قضى نفسه، فهو أشبه بمن ينكر وجود ما لا يمكن رؤيته بالعين المجردة قبل اختراع (التلسكوب)، وأمثالهم نوسائل (التكبير) و (التقريب)، فهى قد كانت (غيب) فى ذلك الوقت^(٢).

٣- قال بعض العلماء:

((ليس كلما يقضى بها العقلى كونه حقاً، ولذلك تراه مبرهاً ويرجعون عنه غداً، ثم يدصرون بعد غد إلى رأى ثالث، ولو كان كلما يقضى به حقاً لكفى فى إصلاح معاشنا الخلقو معادهم، ولم يكن لبعثة الرسل عليهم السلام فائدة))^(٣).

٤- أنما لغيره يتمسك بالحدائى بنقد يسال عقلو جعلها المصدر الوحيد للحكم على الأشياء، مع أن أصدحابه هذا الفكر الأصلين فى الغرأ قد تخلو عنه لصالح الفكر التجريبى الفكر النسبى، وإن كانوا قد رجعوا منذ ذلك إلى القول بأن الطبيعة هى التى كان لها الفضل فى تبينها العقل إلى الاستفادة من هذا الكون، ولكننا المهم هو أنهم لم يعودوا يعترفون بالعقل مصدر أو حيد للمعرفة^(٤).

فما بالحدائى ينيريدون أن يكونوا عقلاً نبيين أكثر من مخترع الفكر العقلانى؟!

(١) مهزلة العقل لبشرى، د. علي الوردي، ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) ينظر: أزمة الفكر الإسلامى المعاصر، ص ١٦.

(٣) الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبى، ١/ ١٩١.

(٤) ينظر: المذاهب الفكرية المعاصرة قودورها فى المجتمعات وموقف المسلم منها، ص ٦٢٦.

٥- أننا إنقلنا بأن العقل أساس النقل، وأن قيمة النصوص الصحيحة أنها تهدي العقل إلى الحكم الصحيح

ح، ((فإن الحق إنما يدل عليها العقل الكمال الصافي عن شوائب الأهواء ورغائب النفس.

وعقول أفراد الناس كانت لاتز المشوبة بغير تلك الأهواء والرغائب..

على أن من الحقائق الثابتة ما لا سبيل للعقل وحده (حتى وإن صفا من الشوائب)

إلى إدراكها والوصول إلى واقعها. فمن أجل ذلك كان لابد للوصول إلى ما تقتضيه العقول من الاعتد

ما على صحيح المنقول))^(١).

(١) المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، ص ٩١، ٩٢ .